من تراب الطريق (٦٤٨)

صناعة التعصب (*)

(١)

حاجة الإنسان إلى الاعتدال فى طاعة عواطفه ؛ قد تكون متساوية مع حاجته لطاعة عقله .. ولكن معظمنا لا يوفق للمحافظة على هذا الاعتدال، وغالبيتنا تعيش معرضة لنوبات التطرف فى حياتها الخاصة ، وأحيانًا فى حياتها العامة ، وذلك على درجات مختلفة من التطرف حسب التركيب المادى والمعنوى لكل فرد منا ، وحسب ظروفه وسنه وشعوره بخفة أو ثقل مسئولياته فى حياته . ولكن الفرد قد يتعرض للمغالاة غير المألوفة فى الانسياق وراء عاطفة ما ، كما قد يتعرض المجموع من الناس لهذه المغالاة .. وهذه وتلك تندرجان فى تشكيل التعصب الذى يلازمه إصرارٌ غريب عنيد.. هذا الإصرار العنيد قد يفقد به صاحبه حياته وأهله إذا جرى وراء تعصبه ، وهو قد يخدم ما تعصب له بكل ما لديه وما ليس فى إمكانه ـ جائزًا كان ذلك أو محرّمًا أو مجرّمًا .. لأن التعصب يوقف لدى صاحبه عمل كل عاطفة إنسانية !

وهذه المغالاة تحدث غالبًا مع تحكم العواطف الإيمانية .. مثل الشعور بالانتماء إلى دين أو ملّة أو مذهب أو طائفة دينية ؛ أو بالانتماء إلى جنس أو شعب أو قبيلة أو عشيرة أو أسرة ؛ أو بالانتماء إلى طبقة أو مستوى ؛ أو

(*) المال فى ٢٥ /٤/ ٢٠١٢

الانتماء إلى فريق أو حزب أو نادٍ ؛ أو الشعور غير العادى بقيمة الذات وما تتبناه الذات من عادات وأفضليات ومصدقات ومبادئ وأفكار .

ومغالاة الآدمى فى عاطفته الإيمانية المتعلقة بتلك الانتماءات ـ تضخم ذاته حتمًا ، وترفعها فى عين نفسه إلى مقام لا يقبل ولا يطيق المساس به ، وتجعل كل مساس بقيمة أى من هذه الانتماءات ـ مساسًا مباشرًا بذاته هو .. لا يقبل بشأنه الأسف أو الاعتذار أو التهدئة ، ويطلق فيه انفعالاته من عقالها وقيودها بلا تعقل ، فينسى الأصول والحدود والمقبول والمعقول. ويبدو أن تلك المغالاة ترجع بالآدمى إلى قديمه السحيق ـ من ضرورة الدفاع ضد الأعداء ومواجهة المخاطر بكل وسيلة وحيلة .. وهو " قديم " لم يعد باقيًا منه الآن إلاّ خيالات وتصورات عميقة فى أفراد أو جماعات متخلفة ما زالت تتوارث مصدقاتها ومعتقداتها حتى اليوم . ولذا احتالت الدول المتحاربة فى الحربين العالميتين ، على خلق التعصب خَلْقًا لدى الجنود باستمرار تلقينهم الشعور بعمق عداوة العدو ووحشيته وأطماعه وفداحة خطره ـ على الوطن والأهل والأنفس والأموال .. تخلق الدول هذا التعصب لكى يقاتل كل جيش خصمه بكل ما تتم إثارته لدى أفراده من حماس وإصرار وعناد بلا تفكير فى أى شىء آخر سوى إتقان القتال للفتك بالخصم .. وربما يسر تحقيق ذلك التعصب بنجاح ـ يسَّره بناء الجيوش على الطاعة شبه العمياء والاعتياد على التكرار الذى لا ينقطع فى التدريب والتعليم والتشابه فى المعيشة بين الدرجات والرتب .

وكما يكون التعصب دينيًّا أو جنسيًّا أو قبليًّا أو طبقيًّا أو أسريًّا أو فرديًّا، يكون أيضًا تلقائيًّا ليس ثمرة أى تنظيم محكم ، كما يكون كسبيًّا منظمًا مدربًا كما فى الجيوش المحاربة وفى العصابات والجمعيات السرية ، وفى المؤامرات وحلقات المتطرفين والفوضويين وتشكيلات الفرق العصابية الإرهابية .

وغالبية التعصب تجدها فى الحكام المطلقين .. ماضين وحاضرين .. لأنه فى واقعه تسيد إرادة واحدة وتفوقها وغلبتها على سائر الإرادات فى كل أمور الجماعة ، وعدم خضوعها الفعلى للمحاسبة والمسئولية والجزاء أو العقاب قبل جهة أخرى يمكنها فعلاً محاسبتها وتوقيع الجزاء أو العقاب عليها .. يجرى ذلك ما بقيت سيادة هؤلاء الحكام فيهم أو فى عقبهم من بعدهم - إرثًا كانت ولاية الحكم أو اختيارًا أو فرضًا .. وغالبًا ما يكون تعصبها الفطرى الغامر القاهر ذا دخلٍ رئيسى فى وصولها إلى التفرد وحدها ، وبلا شريك أو نظير ، فى حكم الجماعة التى سلمت مقاليدها إليها طوعًا وكرهًا .. وهذا كان كثيرًا شائعاً فى أباطرة وملوك وأمراء الدول فى التاريخ القديم والوسيط والحديث حتى نهاية القرن التاسع عشر ، وشاع فيما بعد الحرب العالمية الأولى مع انتشار الفاشية والشيوعية . وإلى هذا الانتشار - تُعزى بعض أسباب الحرب العالمية الثانية ، كما يُعزى قيام الديكتاتوريات فى البلاد التى مُنيت بها فى أمريكا الجنوبية وأفريقيا وآسيا بعد تلك الحرب ، ثم تداعيها وتساقطها بعد سنوات طويلة من الفساد والإفساد الذى جره التعصب وتوالى المستبدين المتعصبين !!

* * *

من تراب الطريق (٦٤٩)

صناعة التعصب (*)

(٢)

كما مد التعصب جذوره إلى الحكام ونظم الحكم ؛ مدها أيضًا إلى التجسس فى زمن السلم وزمن الحرب والإنفاق الهائل على المخابرات العامة والخاصة بأشكالها الرسمية والخفية وأساليبها المألوفة والمدمرة المخزية التى لا تتورع عن القتل والتدمير .. كما مد التعصب جذوره إلى تشجيع الإرهاب ونشره واختيار فرقه وتشكيلاته من الشواذ ومن الشباب المتعصب الذى يكرس تعصبه ليدفع إلى التدريب والمران على الاغتيال وحرق الأحياء ونسف المصالح والمصانع وإغراق السفن وإسقاط طائرات الركوب بركابها وتدمير السكك الحديدية وقطاراتها.. وقد انتقلت هذه التشكيلات الإرهابية من خدمة الدول التى استغنت عنها لسبب أو آخر ـ انتقلت إلى خدمة الفئات المتمردة أو الثائرة على حكوماتها لشغلها بالقتل والنسف من أجل الاستجابة لقضايا ومطالب تلك الفئات الساخطة شديدة التعصب والعناد !!

على أن هناك بالضرورة فارقًا جسيمًا بين تعصب الحاكم والقائد والرئيس، وتعصب المحكوم والمقود والمرءوس .. فتعصب هؤلاء طاعة مطلقة وتسليم تام يبلغ حد الآلية فى تنفيذ المطلوب منهم وأدائه أداءً حرفيًّا ليس فيه أدنى تعديل تقتضيه الظروف ، أو ضرورات الموقف أو المكان أو

(*) المال فى ٢٦ /٤/ ٢٠١٢

الزمان .. فهذا تعصب ضرير مدفوع للطاعة العمياء والامتثال والانصياع الكلى لمشيئة الآمر .. مهما كلف هذا الانصياع صاحبه !

وذلك التصلب الفريد الذى يسترعى التفات الإنسان العادى ـ بأنواعه وأشكاله كافة .. هذا التصلب شذوذ فى العاطفة أكثر منه فى العقل. وهو يلازم صاحبه عادة إذا بدأ ظهوره منذ الصغر .. معلنًا مقته لتغيير موقفه أو مسلكه أو رأيه وعصيانه لدواعى هذا التغيير أيًّا كانت .. وكثيرًا ما يجرى الخلط وتَصْعُب التفرقة بين التعصب والعناد فى الصغار .. حيث يكون العناد وسيلة الصغير للدفاع عن إحساسه بذاته وعدم رضاه عن محيطه ، ثم يزول هذا العناد بزوال أسبابه الخارجية وبنمو الصغير واتساع فرص الاختلاط والاحتكاك أمامه واكتشافه خطأ أحكامه على من كان يعاندهم وتغير رأيه فيما هو صحيح ولائق ومناسب ومنصف ، وفيما ينبغى ويجمل ويقبل من الكبار الراشدين مما لا يمكن أن يفطن إليه الأحداث والمراهقون من الأصول والضوابط والأعراف المرعية بين البالغين فى بيئات البالغين . وكثيرًا ما يتعجل المقاربون لسن الشباب تقليد الكبار والمبالغة فى ذلك التقليد إلى حد العناد فى انتحال بعض ما قدْ يقبل من الكبار من الاستقلال وعدم الخضوع للإشراف ، ويزعجون بتلك المبالغة ذويهم وأهليهم ، وينتهى ذلك التقليد ببلوغ الرشد الحقيقى وينتهى معه ذلك الإزعاج .

أما التعصب الذى قد يوجد لدى المرءوسين والتابعين والمحكومين ، فإنه يثير إلى أى حد يمكن أن يؤثر تعصبهم على طاعة رؤسائهم أو ذويهم مع لزوم هذه الطاعة لوجود النظام الاجتماعى كله ونظام الحكم والإدارة

كله ونظام الدفاع والأمن والصحة والاقتصاد والمواصلات والزراعة والصناعة والتجارة والادخار والتعليم وأنظمة الأديان والملل والعلوم والحقوق . فهذه الطاعة لا غنى عنها لوجود مجتمعاتنا ومدننا وقرانا وحضارتنا . فمتى وأين تقف الطاعة حتى لا تكون نقصًا وتصلبًا وشذوذًا ينبغى توقيه فى ظل حضارتنا المتقدمة وحرصنا على حقوق الإنسان ؟ وما هو وضع الشعوب التى تكاد تقدس الطاعة تقديسها للنظام كالألمان والشعوب التى اعتادت الطاعة العمياء لحكامها لاعتيادها على الاستبداد والهوان وعدم نمو الإحساس بقيمة الذات وقيمة الإنسان أيًا كان ؟ وكيف يمكن أن نفرق بشىء من الإنصاف بعد نزول القرار الغشوم غير الإنسانى من القمة عبر تسلسل الرئاسات إلى القاع بلا عائق ـ كيف يمكن أن نفرق فى محاسبة أهل القاع ورئاستهم القريبة منهم بين واجب الطاعة المعتاد وبين الاستجابة الذاتية غير الإنسانية وليدة التعصب والتصلب والشذوذ ؟

وتسلسل الأوامر وتتابع تنفيذها على المستويات بين الآمر والمأمور الذى يتحول بدوره إلى آمر ، وهكذا .. قد يؤدى مع الاعتياد على التنفيذ والصدوع له ، إلى أن يصير التنفيذ آليًا يتوارى معه الإحساس بالمسئولية ، ومع التكرار والآلية تصير الأوامر والقسوة اعتيادًا تخبو معه الضمائر فلا تتحرك ، ولا تشعر بأى غضاضة ناهيك عن الوخز والتأنيب الذى يشعر به الأسوياء من الأوامر الشاذة والإجراءات الشاذة والممارسات الغليظة ، مثلما نرى كثيرًا فى عمليات الضبط والقبض ، ومثلما نرى فى الإفراط فى توقيع الحبس الاحتياطى بلا تقدير جدى لأسبابه أو ربطه بضوابط محددة أو تقييده تقييدًا فعليًا بما ينص عليه ويوجبه القانون ، مع شيوع التصور أن تنفيذ أمر

الرئيس يعفى المرءوس من تبعة ما نفذه من أوامر تفتقد المشروعية أو تفتقد العدالة أو تنبو عن القيم الإنسانية .

وهكذا تلتبس الآلية وشبه الآلية فى الأوامر وتنفيذها فى عيون الجمهور.. تلتبس بالتعصب واللا إنسانية والمغالاة غير المعقولة فى العناد فى تحقيق ما يراه كل آمر من أسلوب أو صورة أو حل أو سياسة والتزام لا يفارقه بالأفكار والمواقف والأعراف التى يعتنقها فى منصبه .. إن التعصب داء ناشب يبث سمومه وآثاره فى كثير من المجالات ، بعضها ظاهر ، وبعضها مستتر ، والإنسان غافل عن هذه وتلك ، لا يلتفت إلى مقدار النحر الذى يحدثه فى كل اتجاه !!

* * *